عام

التسامح والحرية الدينية في الفكر الأوروبي

هاشم صالح

باحث وكاتب سوري

قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة

جميع الحقوق محفوظة

مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث

All rights reserved

Mominoun Without Borders

"التسامح اللامحدود يؤدي حتمًا الى القضاء على التسامح. فإذا كنا متسامحين بشكل مطلق حتى مع المتعصبين، وإذا كنا لا ندافع عن المجتمع ضد هجماتهم، فإنه سيتم القضاء على التسامح والمتسامحين في آن معًا"

(كارل بوبر. المجتمع المنفتح وأعداؤه. الجزء الأول. الفصل السابع. مفارقة التسامح. ص 265).[1]

نستنتج من كلام المفكر الإبيستمولوجي الشهير أن التسامح لا يعني الانفلات أو التسيب الكامل، بل إنه لا يعني السماح بأي شيء وكل شيء، وإلا فقد معناه، ويمكن أن نتسامح مع الأشياء الإيجابية بل ونشجعها، ولكن لا يمكن أن نتسامح مع الأشياء السلبية الضارة. فهناك تخوم للتسامح في كل مجتمع لا يمكن تعديها، فلا يمكن أن نتسامح مثلاً مع التعصب الطائفي أو العنصري لأنه يشعل الفتن والحروب الأهلية داخل المجتمع. ثم إنه مضاد لإعلان حقوق الإنسان وكرامته، فكل شخص له الحق في الكرامة الإنسانية أيًا يكن أصله وفصله ودينه أو عرقه أو مذهبه. وبالتالي فلا يمكن أن نتسامح مع المتعصبين أعداء التسامح وإلا فقدت كلمة التسامح معناها. لا يمكن أن نتسامح معهم لأنهم يؤججون المشاعر الطائفية والتقسيمية في المجتمع ويؤلبون الناس بعضهم على البعض الآخر. انظر ما يفعله التكفيريون عندنا، أو ما تفعله أحزاب اليمين المتطرف في الغرب ضد الجاليات المهاجرة من عربية أو إفريقية. وهذا يشبه العبارة الشهيرة لأحد قادة الثورة الفرنسية سان جوست: لا تسامح مع أعداء التسامح، أولا حرية لأعداء الحرية، ولكن عمومًا فيما يخص التسامح الديني نلاحظ وجود موقفين أساسيين: الأول يخص العصور الوسطى اللاهوتية، والثاني يخص العصور الحديثة المدنية، فلنتوقف قليلاً عند كل منهما قبل أن نستعرض فكرة التسامح في الفكر الأوروبي منذ بداياتها وحتى اليوم.

أولاً: معنى التسامح في ظل الأديان إبان العصور الوسطى

كان هناك سقف محدد للتسامح في العصور الوسطى لا يمكن تجاوزه ومفاده أن لا يمكن أن يوجد إلا دين واحد صحيح أو حتى مذهب واحد صحيح داخل هذا الدين. فإذا كنا نعيش في المجتمعات المسيحية فإن الدين الوحيد الصحيح لا يمكن أن يكون إلا الدين المسيحي. والمذهب الوحيد الصحيح لا يمكن أن يكون إلا المذهب الكاثوليكي البابوي الروماني الذي يشكل الأغلبية العددية داخل المسيحية[2]. وإذا كنا نعيش في مجتمع إسلامي

[1] Karl Popper: The tolerance paradox, in: The open society and its enemies; Vol. I, Chapt. 7, P.265.

[2] حتى مفكر مثل برنارد لويس يعترف بذلك. انظر كتابه: يهود في أرض الاسلام. الطبعة الفرنسية. منشورات فلاماريون. باريس. الفصل الأول: الاسلام والأديان الأخرى، ص 17 وما بعدها.

فالدين الوحيد الصحيح هو الإسلام، والمذهب الوحيد الصحيح هو أهل السنة والجماعة الذين يشكلون الأغلبية الساحقة داخل الإسلام... الخ. والمؤرخون ضمن هذا المقياس يرون أن الإسلام كان أكثر تسامحًا مع الآخرين من المسيحية. فقد كان يعطي حقوقًا كبيرة لغير المسلمين القاطنين على أراضيه في حين أن المسيحية الأوروبية كانت تضطهد أتباع الأديان الأخرى ولا تعطيهم أية حقوق تقريبًا. وهذا لا يعني بالطبع أن الاسلام كان يعامل المسلم وغير المسلم على قدم المساواة فهذا مستحيل ضمن منظور العصور الوسطى، وبالتالي ففكرة التسامح بالمعنى الواسع والحديث للكلمة كانت تشكل اللامفكر فيه أو المستحيل التفكير فيه بالنسبة لتلك العصور.

ثانيًا: معنى التسامح في العصور الحديثة

ينبغي أولاً توضيح مسألة سيمانتية تخص معنى الكلمات، فكثيرًا ما تُستخدم كلمة التسامح كمرادف لكلمة الحرية، ولكن في بعض الأحيان نجد أن عددًا من المفكرين يفرقون بينهما بشكل واضح، بل ويشكلون عن التسامح فكرة سلبية، فهو في رأيهم لا يعني الحرية وإنما مسامحة الآخرين على اختلافهم الديني بشكل فوقي: أي الصفح عنهم وعدم معاقبتهم لأنهم يختلفون عنا في الدين أو المذهب، إنه يعني التساهل معهم ولكن بشكل أبوي استعلائي وأحيانا احتقاري، بل ويعني أحيانا اللامبالاة بهم وبعقائدهم التي تعد دونية أو شاذة عن رأي الأغلبية، وهذا الفهم المتعجرف للتسامح غالبًا ما يشكو منه مثقفو الأقليات. ومثال ذلك رابو سانت إتيين[3] الذي صرخ في وسط الجمعية التأسيسية الفرنسية قائلاً وموجهًا كلامه لنواب الأغلبية الكاثوليكية: أيها السادة نحن لا نطلب منكم التسامح وإنما الحرية. بمعنى: لماذا نترجاكم لكي تتسامحوا معنا؟ ماذا فعلنا حتى لا تتسامحون معنا؟ هل أجرمنا اذ اختلفنا معكم في تفسير المسيحية وانتسبنا الى مذهب آخر غير مذهبكم؟

لكي نشكل فكرة تاريخية عن الموضوع سوف نحاول استعراض فكرة التسامح منذ بداياتها الأولى لمعرفة سبب نشأتها والغاية المتوخاة منها. وسوف نبتدئ بالمفكر الفرنسي بيير بايل قبل أن ننتقل الى جون لوك، المفكر الآخر الذي مهد الطريق لفلاسفة التنوير الأوروبي، وأحب أن أنبه منذ البداية الى أن هذا الغطس في الماضي الأوروبي البعيد عني يعني الغطس في الحاضر العربي والإسلامي القريب مني أو الراهن بكل بساطة، فحاضرنا يشبه ماضيهم في الواقع لا حاضرهم، فحاضرهم متقدم علينا، وبالتالي فميزة هذه العودة الى الماضي الأوروبي الطائفي والمذهبي هي أنها تلقي أضواء ساطعة على الحاضر العربي الإسلامي الذي لا يقل عنه طائفية ومذهبية. وإذا كانوا هم قد تجاوزوا ذلك منذ زمن بعيد وحققوا وحدتهم الوطنية الراسخة، فإننا لا

Bernard Lewis: Juifs en terre d'Islam. Flammarion. Paris, Chap.1, L'Islam et les autres religions, P.17.

[3] Rabaut de Saint - Etienne (1743-1793).

هو أحد قادة الثورة الفرنسية. كان متحمسا جدا لها لأنها ألغت الطائفية وجعلت البروتستانتيين متساوين في الحقوق مع أبناء الأغلبية الكاثوليكية لأول مرة في تاريخ فرنسا.

نزال نتخبط في المعمعة ولا نعرف متى سنخرج منها، لحظة الخلاص ليست قريبة على ما يبدو ولا تلوح في الأفق أصلاً.[4] وذلك لأن مسافة التفاوت التاريخي بيننا وبينهم تتجاوز المئتي سنة وربما أكثر كما سيتوضح من هذه الدراسة.

ثالثًا: لمحة تاريخية عن كيفية نشوء التسامح في أوروبا: بيير بايل أنموذجًا[5] Pierre Bayle(1647-1706)

بما أن أوروبا تجاوزت حروب الطوائف والمذاهب المسيحية منذ زمن بعيد، وبما أنها أصبحت مدنية علمانية بالكامل، فإننا نتوهم أنها كانت دائمًا هكذا ولم تعانِ مثلنا من الانشقاقات الدينية أو المذهبية، وقد شهدت الحروب المذهبية الضارية على مدار أكثر من قرن أو قرنين قبل أن تتطور وتستنير، ولأن مثقفيها عانوا كثيرًا من التعصب المذهبي فإنهم بلوروا فكرة التسامح بوصفها علاجا، وهذا يعني أن الفكر مرتبط بالواقع وحاجياته الملحة وإلا فلا معنى له، وفي هذا المقام نذكر المفكر الفرنسي بيير بايل الذي عانى ما عاناه من التعصب الديني إلى درجة أنه أمضى حياته في مكافحته وتحليله وتفكيكه بغية الخلاص منه، فمن هو بيير بايل يا ترى؟ إنه الرائد الذي سبق فلاسفة التنوير الكبار وأرهص لقدومهم، فقد جاء قبلهم بقرن من الزمن، وقد مات عام 1706 في حين أن فولتير ولد عام 1664، أي بعد عشر سنوات من موته أو أكثر قليلاً. ومعلوم أنه كان يحبه كثيرًا ويستشهد به مرجعية فكرية كبرى، لقد كان بيير بايل مع الفيلسوف الإنكليزي جون لوك أحد المفكرين

[4] الفرق الأساسي بين الثورة الفرنسية وثورات الربيع العربي وكذلك الثورة الإيرانية من قبل هو أنها كانت ضد اللاهوت الديني ورجال الدين بكل وضوح. أما ثوراتنا فهي خاضعة لهم الى حد كبير. والدليل على ذلك أن الإخوان المسلمين قطفوا ثمار الثورات وليس القوى الليبرالية المستنيرة التي دشنتها. وهذا معاكس لما حصل في فرنسا بعد الثورة الكبرى. فرجال الدين اختفوا عن الأنظار أو نزلوا تحت الأرض خوفا من العقاب. وأما القوى الليبرالية والتنويرية فقد استلمت مقاليد الأمور. ولذلك كان التغيير الى الأمام لا الى الخلف. ولذلك استطاعوا تشكيل دولة القانون المدنية وحقوق الإنسان على أنقاض الدولة الثيوقراطية الطائفية والقانون المقدس للشريعة المسيحية. هذا لا يعني أن ثورات الربيع العربي ليست مشروعة ضد أنظمة الطغيان والفساد والحزب الواحد والمخابرات المتضخمة وإرهاب المواطنين! إنها أكثر من مشروعة وبخاصة ضد الأنظمة المركبة على الطريقة البوليسية الستالينية التي تكمم الأفواه كماً وتعطل الجدلية التاريخية الخلاقة للمجتمع. ولكنها ثوراتنا لن تعطي ثمارها يانعة إلا بعد أن تنتصر الأفكار الجديدة على الأفكار القديمة للتقليديين ورجال الدين. وهذا يعني أننا سنحتاج لاحقا الى ثورة أخرى تنقلب على حكم الإخوان بغية تصحيح المسار. ولكن هذا لن يحصل قبل انتصار الفكر الديني التنويري الجديد على الفكر الديني القديم. وهذه عملية صعبة جدا قد تستغرق سنوات طويلة. ما فعله فلاسفة الأنوار والموسوعيون في أوروبا لم يحصل حتى الآن في العالم العربي. إنارة العقول لم تحصل بعد وبخاصة على مستوى الجماهير الشعبية التي تشكل الاحتياطي الكبير للأصوليين.

[5] ظهرت كتب عديدة مهمة عن بيير بايل في السنوات الأخيرة. نذكر من بينها سيرته الشخصية التي كتبها البروفيسور هوبير بوست ونشرتها دار فايار في أكثر من ستمئة صفحة. وهي مرجع لا غنى عنه للتعرف على حياته ومؤلفاته في آن معا. كما أنها مفيدة جدا للتعرف على الصراعات المذهبية التي كانت تشغل فرنسا بل وتشعلها في ذلك الزمان. انظر:

Hubert Bost: Pierre Bayle. Fayard. 2006

والباحث المذكور يشغل في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا بباريس كرسي: المذاهب البروتستانتية والثقافة في أوروبا الحديثة.

هناك أيضا مرجع مهم يتحدث عن بيير بايل من جملة مفكرين آخرين تحت عنوان: الأسس الفلسفية للتسامح. وهو كتاب جماعي صدر عن المطبوعات الجامعية الفرنسية عام 2002

Les fondements philosophiques de la tolérance. Collectif. PUF. 2002

وأخيرا نذكر كتابا جماعيا آخر بعنوان: بيير بايل وحرية الضمير والمعتقد باريس، 2012

Pierre Bayle et la liberté de conscience. Collectif .Anachorèses. Paris. 2012

الكبار الذين ساهموا في انبثاق التسامح الديني في أوروبا، وكان ذلك إبان احتدام الصراعات المذهبية بين البروتستانتيين والكاثوليكيين، وكان أول منظر يدعو الى التسامح مع الجميع بمن فيهم الملاحدة، وبالتالي فقد كان سابقًا لعصره بكثير. ومعلوم أن الرواد يجيئون قبل الأوان لكي يشقوا للآخرين الطريق ولكنهم يعانون كثيرًا بسبب ذلك ويدفعون الثمن غاليًا.

كان بيير بايل ينتمي الى الأقلية البروتسانتية الفرنسية بل وكان أبوه رجل دين، أي قسًا بروتستانتيًا، ولكن بايل الشاب غير مذهبه عام 1669 عندما أصبح طالبًا في المعهد اليسوعي بمدينة تولوز، ثم اكتشف بعدئذ أنه أخطأ فعاد الى مذهبه الأصلي بعد ثمانية عشر شهرًا فقط. وهكذا خاطر بنفسه لأن الملك لويس الرابع عشر كان يرفض أي ارتداد عن الكاثوليكية التي تشكل المذهب الرسمي للبلاد. وبالتالي فقد أصبح الرجل مرتدًا لأنه عاد الى حضن "الهرطقة"[6] من جديد. وعندما شعر بالخطر هرب الى هولندا البروتستانتية مثله واستقر في مدينة روتردام، وهناك وجد وظيفة كمدرس لمادتي الفلسفة والتاريخ، وراح ينشر مجلة أيضا تحت عنوان: أخبار جمهورية الآداب، ومعلوم أن هولندا كانت في ذلك الزمان أكثر بلدان أوروبا تسامحًا وحرية. وإليها كان يلجأ الفلاسفة لكي يعبروا عن أفكارهم بحرية كما فعل ديكارت مثلاً، نقول ذلك على الرغم من أنه كان كاثوليكيًا لا يعاني في فرنسا من الاضطهاد الطائفي الذي أصاب بيير بايل وبقية أبناء الأقليات. ولكنه ما كان يستطيع أن يتنفس بحرية ويبلور فلسفته الجديدة داخل جدران المملكة الفرنسية الكاثوليكية البابوية المتعصبة. لكن لنعد الى بيير بايل.

إن تجربته الشخصية في تغيير مذهبه واعتناق المذهب المعادي ثم العودة إلى مذهبه من جديد برهنت له على عبثية الإكراه في الدين، فالإنسان يعتقد أن دينه هو وحده الصحيح، ولكنه لو ولد في دين آخر أو مذهب آخر لاعتقد ذات الشيء أيضًا، ولهذا السبب اعتبر بايل أن الأمور نسبية وراح يتبنى مبدأ حرية الضمير فيما يخص المعتقد بل وراح يقول إنه يحق للمرء تغيير دينه أو مذهبه إذا ما أملى عليه ضميره ذلك. وكان هذا الموقف سابقًا لعقلية العصر بكثير. ولم يتحقق في أوروبا إلا بعد مئتي سنة من موته.

لقد ألف بيير بايل عدة كتب شهرته وجعلته مقروءًا طيلة القرن الثامن عشر، أي عصر التنوير الكبير، فقد راح فلاسفة التنوير يستشهدون بها لدعم مواقفهم المضادة للتعصب الديني والأصولية الكاثوليكية، ونذكر من

[6] ينبغي العلم بأن المذهب البروتستانتي في فرنسا الكاثوليكية كان يمثل أقلية كبيرة آنذاك: حوالي العشرين بالمئة. ولكنه كان يعد زنديقا مهرطقا بسبب بعض الخلافات اللاهوتية مع الكاثوليك ثم بسبب كرهه الشديد لبابا روما. ولذلك كانوا يكفرونه ويكفرون أتباعه ويحلون دمهم. وقد عانوا من المجازر ما عانوه ثم اضطروا الى الفرار بمئات الألوف إلى الدول المجاورة. وبالتالي فقد عانت فرنسا كثيرا من الحروب الاهلية الطائفية قبل أن تعقل وتستنير وتتوصل الى تفسير آخر للمسيحية. عندما أرى ما يحصل حاليا في دول المشرق العربي وإلى المهجرين من الشعب السوري العظيم بمئات الألوف أيضا أكاد أقول: ما أشبه الليلة بالبارحة! عندما أرى المجازر الطائفية التي تحصل في العراق وغير العراق بشكل دوري منذ سنوات أكاد أقول: أما لهذا الليل من آخر؟ متى سنتصالح مع أنفسنا، مع بعضنا البعض؟ متى سينبثق تفسير آخر للدين الإسلامي غير التفسير التقليدي الراسخ منذ مئات السنين؟ متى سينتصر التنوير العربي الإسلامي على الظلامية العربية الإسلامية؟

بينها: "ما تعنيه فرنسا الكاثوليكية المتعصبة في عهد لويس الكبير".[7] وفيه يشن حملة شعواء على المذهب الكاثوليكي الذي كان يضطهد البروتستانتيين والذي يشكل الأغلبية في فرنسا، ثم نشر كتابًا آخر بعنوان: "تفسير فلسفي لهذه العبارة المنسوبة إلى يسوع المسيح: أجبرهم على الدخول! "أي أجبرهم على الدخول في الدين المسيحي وبالأخص المذهب الكاثوليكي، وفيه يبرهن على أن المسيح لا يمكن أن يقول هذه العبارة لأنه كان ضد الإكراه في الدين على عكس الكهنة الكاثوليكيين وبابوات روما. وبالتالي فالعبارة منسوبة إليه زورًا، أو إذا كانت صحيحة ينبغي أن نفسرها بشكل مجازي لا بشكل حرفي، وفي هذا الكتاب ينتقد بعنف التعصب المذهبي السائد في فرنسا آنذاك على يد الكاثوليك الذين يكفرون أتباع المذهب الآخر ويتهمونهم بالهرطقة. كما وينتقد رفض التعددية المذهبية والعقائدية في المملكة الفرنسية وإجبار الناس كلهم على اعتناق مذهب واحد غصبًا عنهم، ثم نشر كتابًا آخر بعنوان: "مرافعة من أجل الدفاع عن حقوق الضمير التائه"؛[8] أي الضمير الحر في الواقع...الخ

كل هذه الكتب أزعجت الملك الكاثوليكي والسلطات الكنسية أيما إزعاج فانتقموا منه عن طريق قتل أخيه يعقوب في السجن لأنهم كانوا عاجزين عن الوصول إليه شخصيًا بسبب التجائه الى المنفى. والواقع أنهم عرضوا على أخيه اعتناق المذهب الكاثوليكي في آخر لحظة لكي ينجو بجلده، وعندما رفض قتلوه. قلت قتلوا أخاه لأنهم كانوا عاجزين عن الوصول إليه. ولكن في أيامنا هذه كانت مخابرات الأنظمة العربية قد وصلت إليه حتى ولو في أقاصي الأرض، فليحمد ربه على هذه النعمة. ولكن المشكلة أنهم قتلوا أخاه بسببه فعاش مشكلة تعذيب الضمير طيلة حياته كلها.

ثم نشر أخيرا كتابه الأشهر "القاموس التاريخي والنقدي".[9] الذي لعب دورًا كبيرًا في تنوير العقول المسيحية، وقد صدرت الطبعة الأولى منه عام 1696 والثانية عام 1701.

أخيرًا ينبغي التأكيد على أن مؤلفات بيير بايل كانت تدخل سرًا، أي تحت المعطف، إلى المملكة الفرنسية حيث كانت ممنوعة منعًا باتًا، ولم يسمح بها إلا عام 1720 أي بعد موت لويس الرابع عشر ببضع سنوات، ولكن كفاها فخرًا أنها زرعت البذور ومهدت الطريق، وسوف يستلم فولتير الشعلة بعد بايل ويشن حربًا ضاريًة على الكنيسة الكاثوليكية والتعصب الديني الأعمى.

[7] Pierre Bayle: Ce que la France toute catholique sous le règne de Louis le Grand.

[8] Plaidoyer pour les droits de la conscience errante.

[9] Dictionnaire historique et critique.

جون لوك والتسامح John Locke(1632-1704)

نشر جون لوك كتابه "رسالة عن التسامح" عام 1689[10]. وقد حذف اسمه فلم يظهر على غلاف الكتاب، كما نشرها باللاتينية، لغة الخاصة والعلماء، لا بالإنكليزية لغة العموم، وهذا دليل على أنه كان خائفًا من أفكاره أو أن أفكاره كانت ضد التيار السائد لدى المؤمنين المسيحيين ولا يستطيع تحمل مسؤوليتها، وهذا ما فعله سبينوزا في نفس الفترة تقريبًا. فقد نشر جميع مؤلفاته بدون توقيع ما عدا واحدًا. لقد كان المفكرون الأوروبيون آنذاك خائفين من الأصوليين المسيحيين تمامًا كما هي عليه حالة المثقفين العرب اليوم. من يستطيع القول بأنه ليس خائفًا من الإخوان أَو السلفيين أو الخمينيين؟ في هذه الرسالة بلور الفيلسوف الإنكليزي الشهير علاقة جديدة بين الدين والسلطة السياسية. وقد دافع فيها عن موقف آخر مضاد لموقف الفيلسوف الكبير الآخر: توماس هوبز الذي كان معاصرًا له. ومعلوم أن هوبز كان يرى أن وجود دين واحد فقط أو حتى مذهب واحد أفضل من وجود عدة أديان أو مذاهب، وكان يعتبر ذلك شرطًا ضروريًا من أجل مجتمع فعال وقوي. أما جون لوك فكان يعتبر أن وجود عدة أديان أو مذاهب أفضل. بل ويرى في ذلك وسيلة لتحاشي الاضطرابات داخل المجتمع. فهو يرى أن الاضطرابات والحروب الأهلية تنتج عن إرادة السلطة في فرض دين واحد أو مذهب واحد على الجميع ومنع بقية المذاهب الأخرى. ويرى جون لوك أنه لو سمحت الدولة بعدة مذاهب لانتفت الحروب المذهبية من المجتمع. وبالتالي فالتعددية أفضل من الواحدية أو الأحادية. فكرة جون لوك تقول ما معناه: بما أن معظم المجتمعات البشرية مؤلفة من عدة أديان أو مذاهب فمن الأفضل أن نتبع سياسة التعددية والتسامح لكي نتحاشى الحروب الطائفية والقلاقل. خاصة أنه يستحيل جمع البشر كلهم على عقيدة واحدة أو مذهب واحد.

يضاف الى ذلك أن جون لوك هدف من رسالته التمييز بين مجال الحكومة المدنية من جهة، ومجال الدين من جهة أخرى. وقد رسم بدقة الحدود الفاصلة بينهما. فهو يرى أن السلطة والدين يؤديان وظائف مختلفة وبالتالي لا ينبغي الخلط بينهما.

وهناك فكرة ثالثة هامة في الرسالة، وهي: الوسيلة الوحيدة التي ينبغي أن يستخدمها دين ما لجذب المعتنقين الجدد إليه ينبغي أن تكون الإقناع لا القسر والإكراه. ولا ينبغي أن تتدخل الحكومة أو السلطة السياسية في ذلك، فخلاص الأرواح في الدار الآخرة ليس من شأنها، وإنما خلاصها وسعادتها في هذه الحياة الدنيا فقط.

[10] انظر الطبعة الفرنسية للكتاب عام 2010. وهي مرفقة بشروحات الباحثة الفرنسية كريستين كورم- توبير. منشورات فرنان ناثان. باريس
John Locke: Lettre sur la tolérance. Commentaire Christine Courme – Thaubert. Fernand Nathan. Paris. 2010.

ولكن هذا التسامح الرائع لجون لوك له حدود وليس مفتوحًا على مصراعيه. فهو يستبعد منه فئتين اثنتين: فئة الكاثوليكيين وفئة الملاحدة. نعم لقد وضع الكاثوليكيين والملاحدة في خانة واحدة، وهذا دليل على مدى ضراوة الصراعات المذهبية الكاثوليكية – البروتستانتية في ذلك الزمان. لماذا استثنى هاتين الفئتين من رحمة التسامح؟ لأن الكاثوليكيين يقدمون الطاعة لشخص آخر غير ملك انكلترا هو: بابا روما، وبالتالي فلا يمكن التسامح معهم. وأما الملاحدة فهم إذ ينكرون وجود الله ينقضون الرابطة الاجتماعية للمجتمع المدني. ولكن الشيء العجيب الغريب هو أنه كان متسامحًا مع المسلمين واليهود بل حتى مع الوثنيين ولكن ليس مع الكاثوليكيين الذين هم مسيحيون مثله في نهاية المطاف. وهذا أكبر دليل على أن الصراع داخل الدين الواحد أخطر من الصراع بين دينين مختلفين. وهذا ما نلاحظه حاليًا في الجهة الاسلامية بين السنة والشيعة. فهم قد يتسامحون مع المسيحيين ولكن ليس مع بعضهم البعض. هذا لا يعني بالطبع أن المسيحيين لا يتعرضون للاضطهاد في أنحاء شتى من العالم العربي والإسلامي. ولكن ضراوة الصراعات المذهبية أخطر.

على الرغم من هذا النقص الذي يعتري نظرية التسامح لجون لوك إلا أنه أسس مفهوم الدولة المدنية ونظرية التسامح في العصور الحديثة. وأكبر دليل على ذلك هو أن إعلان الاستقلال الأميركي يأخذ الكثير من أفكاره بل ويستعيدها أحيانًا بالحرف الواحد. وهذا ما فعله إعلان حقوق الإنسان والمواطن للثورة الفرنسية بالنسبة لجان جاك روسو. فهو أيضا استعار أفكار الفيلسوف السويسري الكبير. وكتابه العقد الاجتماعي كان بمثابة إنجيل الثورة الفرنسية. ثم يقولون لك بعد كل ذلك بأن المثقفين لا ينفعون في شيء، وإنما هم مجرد أشخاص يثرثرون في الفراغ، ولكننا نتحدث هنا عن المثقفين الحقيقيين أو الفلاسفة الكبار لا عن أشباه المثقفين العرب.

هكذا نلاحظ أن بيير بايل وجون لوك هما منظرا التسامح الديني في نهايات القرن السابع عشر: أي في أوج الصراعات المذهبية التي مزقت أوروبا، وينبغي أن نضيف إليهما سبينوزا وآخرين عديدين، فقد مهدوا الطريق جميعًا للتنوير الذي سيظهر بعدهم في القرن التالي. ونلاحظ أن مؤلفاتهما عن الموضوع ظهرت في نفس اللحظة تقريبًا. بالنسبة لبايل ظهر أول كتاب له عن الموضوع عام 1686[11]، وبالنسبة لجون لوك عام 1689 كما ذكرنا آنفًا. بل والتقيا شخصيا في روتردام بهولندا.

[11] كتاب بايل كان بعنوان: عن التسامح. وأما كتاب جون لوك فكان بعنوان: رسالة عن التسامح.

Pierre Bayle: De la tolérance 1686.

John Locke: Lettre sur la tolerance.1689

هكذا نلاحظ أن التسامح الديني كان الشغل الشاغل لمفكري أوروبا في ذلك الزمان تماما كما هو عليه الحال بالنسبة للمثقفين العرب اليوم.

ينبغي أن ندرك أن جون لوك كان منخرطًا في الصراعات السياسية والدينية لعصره ولم يكن منعزلاً في برجه العاجي كما يقال، فقد كان صديقًا لأحد كبار السياسيين الإنكليز آنذاك: اللورد آشلي، وقد لحقه عام 1683 في منفاه الهولندي إبان استعار الحرب الأهلية الإنكليزية بين الكاثوليكيين والبروتستانتيين. وفي هولندا ألف كتابه: "مقالة عن السلطة المدنية" وفيه يميز بين مجالين مختلفين: المجال الديني، والمجال المدني، والتسامح هو النتيجة المباشرة لهذا الفصل. ثم يوضح الفيلسوف الكبير فكرته على النحو التالي: الله لم يمنح أحدا الحق في التدخل في روح شخص آخر أو معتقده.

لا يستطيع أن يفتح قلبه أو صدره لكي يرى ما فيه، وعليه فكل شخص حر في أن يعتنق الدين الذي يشاء ويمارس الطقوس التي يشاء، والقوانين القمعية أو العقوبات لا تجدي نفعًا في هذا المجال، لماذا؟ لأنها لا تستطيع أن تولد اقتناعًا داخليًا حقيقيًا في روح الإنسان، فالدين، أي دين، ليست له وسيلة لجذب الناس إليه إلا عن طريق الحجج المنطقية والكلام المقنع دون إكراه، وينتج عن كل ذلك أن الإيمان مسألة داخلية بين الإنسان وربه ولا يحق لأي مخلوق على وجه الأرض أن يتدخل فيها حتى ولو كان رئيس الدولة. وهذا الكلام يعني إدانة لتصرف لويس الرابع عشر الذي أجبر البروتستانتيين على اعتناق المذهب الكاثوليكي بالقوة بل وعن طريق التعذيب، ومن لم يقبل بذلك قتله أو أجبره على الفرار. وهذا الاضطهاد الديني الرهيب هو الذي جعل فكرة التسامح تنبثق على يد بيير بايل الآنف الذكر. ولولاه لما كانت هناك حاجة إلى التنوير أصلا، فالتنوير لا ينبثق إلا عندما تكون الأرض عطشى له: أي عندما يكون الظلام مطبقًا والتعصب الطائفي والمذهبي يهدد نسيج الوحدة الوطنية للبلاد.

في الختام نؤكد بأن بيير بايل وجون لوك برهنا على ضرورة التسامح وفائدة التعددية الدينية داخل المجتمع. لقد شكل فكرهما خطوة أولى نحو حرية الضمير والمعتقد التي سينص عليها فلاسفة التنوير بعد قرن من ذلك التاريخ، ولولاهما لما كان فولتير ومونتسكيو وروسو وديدرو... الخ.

وهكذا نلاحظ أن الفكر الأوروبي مشى خطوة خطوة باتجاه الحرية الدينية الكاملة ولم يستطع الوصول إليها دفعة واحدة. والحرية الدينية أهم من التسامح لأنها تعني أنه لا أحد يتفضل بالتسامح على أحد وإنما كل واحد حر في أن يعتقد الدين الذي يشاء أو لا يعتقد أي دين على الاطلاق. ومع ذلك فإنه يظل مواطنًا له كل الحقوق وعليه كل الواجبات. والواقع أن أغلبية سكان البلدان المتقدمة أصبحوا مؤمنين بالفلسفة الإنسانية الحديثة، أي فلسفة الأنوار، لا بالأديان التقليدية كالمسيحية أو سواها. هذا الفصل الكامل بين المواطن والمتدين ما كان ممكنًا في عهد بيير بايل وجون لوك، ولكنه أصبح ممكنًا في عهد فولتير وجان جاك روسو وديدرو،

وهذا يعني أن التحرير الفكري من الأصولية المسيحية لم يحصل دفعة واحدة وإنما على مراحل متتابعة ومتدرجة كما ذكرنا.

أزمة الحقيقة الدينية مع ذاتها[12]

ينبغي بعد أن وصلنا في الحديث إلى هذه النقطة أن نتوقف هنا لحظة عند نقطة أساسية؛ هي أن الحقيقة الدينية المطلقة دخلت في أزمة مع ذاتها بدءًا من عصر التنوير، ماذا يعني كل ذلك؟ إنه يعني أن الأصولية الدينية ابتدأت تفقد مصداقيتها، فالفلاسفة راحوا يتساءلون: كيف يمكن للدين أن يبرر المذابح والمجازر الطائفية التي ذهبت بملايين المسيحيين من بروتستانتيين أو كاثوليكيين؟ هل يعقل أن يبرر الدين الإلهي كل هذه الفظائع؟ بدءًا من تلك اللحظة أخذ الشك يتسرب الى النفوس، وراحوا أولا يشكون في رجال الدين الذين كانوا يؤلبون الناس بعضهم على بعض لكي يذبح بعضهم بعضًا، ثم راحوا يشكون في صحة الفتاوى "الإلهية" التي يطلقها رجال الدين هؤلاء بمن فيهم البابا الذي صفق لمجزرة سانت بارتيليمي المرعبة ضد البروتسانتيين. ثم راحوا يشكون في صحة العقيدة ذاتها. فعقيدة تشرع كل هذه المجازر لا يمكن أن تكون إلهية ولا خيّرة. وهكذا توصل الفلاسفة إلى عمق الموضوع وقالوا: إن الحقيقة الدينية ذاتها أصبحت على المحك، ففي الماضي، أي قبل عصر التنوير، كان الدين يفرض نفسه حقيقة مطلقة لا تقبل النقاش، وكان يفرض ذاته عقيدة إلهية مطلقة معصومة، ولكن الفلاسفة أصبحوا يشكون في ذلك بعد كل ما حصل من فظائع باسم الدين.

ولذا راحوا يفككون الأصولية المسيحية من جذورها، في عمق أعماقها. راحوا يقولون: لو أن الكاثوليكي ولد في أرض بروتسانتية لأصبح بروتستانتيًا ولا أعتقد بأن مذهبه يمثل الحقيقة المطلقة للمسيحية وأن أتباع المذهب الآخر زنادقة أو كفار. والعكس صحيح. بل وتجرأوا في التساؤل أكثر وقالوا: لو أن المسيحي ولد في بلاد إسلامية لاعتقد جازمًا بأن الإسلام على حق والمسيحية على ضلال. وقس على ذلك... بدءًا من تلك اللحظة دخلت الحقيقة الدينية المطلقة في أزمة مع ذاتها. بدءًا من تلك اللحظة راح الناس يشكون في أنها حقيقة مطلقة. وراحوا يلمحون لأول مرة نسبيتها ومحدوديتها. وبدءًا من تلك اللحظة أيضًا راح الفلاسفة يعتقدون بأن هناك عدة أديان صحيحة لا دين واحد. وهناك عدة طرق الى الله لا طريق واحد. لماذا يكون ديني وحده صحيحًا وكل الأديان خاطئة؟ بل وهناك عدة مذاهب صحيحة داخل نفس الدين لا مذهب واحد فقط، كما حاول أن يقنعنا حديث الفرقة الناجية مثلاً. وهو موجود في المسيحية أيضًا وليس فقط في الإسلام. بل وموجود في اليهودية أيضًا لأن اليهود الأصوليون يعتقدون بأنهم شعب الله المختار وأن كل الأديان الأخرى على ضلال. بعد أن

[12] استعرت هذا المصطلح من الفيلسوف الفرنسي الكبير بول ريكور. انظر مقالته في كتاب جماعي بعنوان: التعصب. منشورات غراسيه. باريس. 1998 L'Intolerance.Grasset.Paris.1998

استطاع فلاسفة التنوير إدخال الحقيقة الدينية في أزمة مع ذاتها، بعد أن كشفوا عن نسبيتها، وأصبح مفهوم التسامح ممكنًا، وأصبح عبارة عن تحصيل حاصل، وأخذ كل واحد يقول بينه وبين نفسه: لو أنني ولدت في دين الآخر لاعتقدت حتما بأن دينه هو الحق بإطلاق. بناء على ذلك راح الفلاسفة يقولون بأن كل الأديان والمذاهب تحتوي على نواة من الحقيقة وليس فقط ديني أو مذهبي. وانطلاقًا من ذلك أصبح الآخر شخصًا يستحق الاحترام ولا ينبغي بعد اليوم أن أكرهه بشكل مسبق، لأنه ينتمي الى دين آخر غير ديني أو مذهب آخر غير مذهبي. فقد يكون شخصًا صالحًا طيبًا مستقيمًا، فلماذا أكرهه إذا لم يكن ينتمي إلى طائفتي أو مذهبي؟

في البداية كان التعصب لا التسامح

ولكن على الرغم من ذلك فإن معظم المؤرخين يعتقدون بأن التعصب لا التسامح هو الذي يشكل الموقف العفوي والطبيعي للإنسان، وبالتالي فالإنسان متعصب بطبيعته وجوهره، إنه يحب أبناء دينه أو طائفته بالدرجة الأولى ويثق بهم. وهذا موقف طبيعي ولا غبار عليه بشرط ألا يتجاوز الحدود في الانغلاق على المذهب أو الطائفة.[13] لماذا؟ لأنه عندئذ قد يتحول الى تعصب أعمى ويصبح خطرًا على الآخرين. وبالتالي فالتسامح ناتج عن اشتغال الذات على ذاتها، فكل الثقافات التي لم تقم بذلك ظلت انغلاقية متعصبة من الناحية الدينية، انظر الفرق بين أوروبا المستنيرة وبقية العالم وليس فقط العالم الإسلامي، ففلاسفة أوروبا ما انفكوا يحللون ويشرّحون ويفككون العقائد المسيحية التقليدية منذ القرن السادس عشر وحتى اليوم، ولهذا السبب توصلوا الى التسامح الفعلي والحرية الكاملة فيما يخص الشؤون الدينية، فالفرنسي أو الإنكليزي أو الألماني... الخ لا يخشى على نفسه إطلاقا إذا لم يمارس الطقوس والشعائر المسيحية.

بل ولا أحد يخطر على باله أصلاً أن يحشر أنفه بهذه المسألة الشخصية، ولكن إذا كان الإنسان الأوروبي يتمتع بكل هذه الحرية حاليا فإن الفضل في ذلك يعود إلى المعارك الفكرية التي خاضها أسلافه العظام كجيوردانو برينو وغاليليو وديكارت وبيير بايل وجون لوك وسبينوزا وفولتير وعشرات غيرهم. هؤلاء ضحوا بطمأنينتهم الشخصية وأحيانا بحياتهم لكي تستمتع الأجيال اللاحقة بحرية الضمير والمعتقد. هذا هو معنى اشتغال الذات على ذاتها: إنه يعني مراجعة الذات لذاتها، أي لموروثها الديني المقدس، وهو عمل يتم بشكل عقلاني تحريري لا بشكل استهتاري أو مراهقات فكرية. ولكنه معقد جدا لأن نقد الذات أو تفكيك انغلاقاتها المزمنة من أصعب ما يكون. لهذا السبب أقول بأن اشتغال الذات العربية الإسلامية على ذاتها هو الشرط

[13] في الواقع أن هذا الموقف يختفي ويفقد مشروعيته عندما تتشكل الدولة الوطنية الديمقراطية الحديثة التي تحمي الجميع وتعاملهم على قدم المساواة. وعندئذ يصبح الولاء للوطن ككل لا للطائفة أو القبيلة والعشيرة. هذا ما حصل في فرنسا وعموم أوروبا بعد انتصار التنوير والثورة الفرنسية. فالفرنسي لم يعد ولاؤه للطائفة الكاثوليكية أو البروتستانتية وإنما للأمة الفرنسية بمجملها. وأصلا لم يعد أحد في فرنسا يعرف من هو كاثوليكي ومن هو بروتستانتي. وقل الأمر ذاته عن ألمانيا وهولندا وبقية الدول المتحضرة...

الضروري المسبق لحصول التحرير الحقيقي: أقصد التحرير الفكري والسياسي في آن معًا. وهي مسألة قد تشغلنا طيلة الأربعين أو الخمسين سنة القادمة، ولأجل ذلك فليعمل العاملون.

-

MominounWithoutBorders

@ Mominoun_sm

Mominoun

الرباط – المملكة المغربية
ص.ب : 10569
هاتف: 00212537779954
فاكس: 00212537778827
info@mominoun.com
www.mominoun.com